

مقصديّة السرد الرحليّ المعاصر

The Intentionality of Contemporary Arabic Travel Narrative

حميدو سارة*

Hamidou Sara¹

مخبر تحليل الخطاب

جامعة مولود معمري - تيزي وزو (الجزائر)

University of MOULOUD MAMMERI Tizi-Ouzou (Algerie)

sara.hamidou@ummtto.dz

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/10/26

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

مَلِكُ حَصْرٍ لِمَنْجِيَّتِ

يتناول هذا المقال تحليل مقصديّة أدب الرحلة في السياق المعاصر، مع التركيز على الدوافع والأهداف التي تحرك الرحالة وتحدد طبيعة نصوصهم. وتتمثل المشكلة البحثية في كيفية تطور هذا الأدب من كونه مجرد توثيق للرحلات ذات المقاصد التقليدية (مثل التوثيق الجغرافي أو الديني) إلى نصوص إبداعية متعددة الأغراض والمقاصد. تُظهر الدراسة أن هناك تحولاً جذرياً في مقاصد الرحلة، حيث انتقلت من دوافعها التقريرية والتاريخية في العصور القديمة، إلى دوافع ذاتية، تأملية، وحتى قسرية في الوقت المعاصر. كما أن هذا التغيير في المقاصد أثر بشكل مباشر على بنية النص، مما جعل السرد العنصر الأساسي الذي يعكس تجارب الذات وتفاعلها مع الآخر. هذا التحول يؤكد أن أدب الرحلة المعاصر أصبح حقلاً خصباً لطرح قضايا إنسانية عميقة مثل الهوية والاعتراب، ما يجعله جنساً أدبياً متجدداً يعكس تحولات العصر. الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة؛ المقصديّة؛ السرد؛ الذات؛ التحول.

Abstract :

The article analyzes the purpose of travel literature in both its classical and contemporary forms, focusing on the motives and goals that drive writers and shape their texts. The central research problem is how this genre evolved from a simple record of journeys with traditional aims (e.g., geographical or religious documentation) into creative texts with multiple, diverse purposes.

*حميدو سارة / sara.hamidou@ummtto.dz

The study demonstrates a radical shift in the purpose of travel. It moved from the factual and historical motives of earlier eras to more subjective, reflective, and even forced motives in the modern period. This change has directly impacted the text's structure, making narrative the primary element that reflects the self's experiences and interactions with others. This evolution confirms that contemporary travel literature has become a fertile field for exploring deep human issues like identity and alienation, making it a dynamic and modern literary genre.

Keywords: Travel Literature; Intentionality; Narrative; The Self; Transformation



مقدمة:

يُعدّ أدب الرحلة أحد أبرز الأجناس السردية في التراث العربي، إذ جمع بين التوثيق والوصف من جهة، وبين الإبداع والتخييل من جهة أخرى. وقد ظلّ هذا الأدب على مرّ العصور مرآة للتجارب الإنسانية والفكرية، يعكس مقاصد الرحالة ودوافعهم المختلفة، ويتحوّل في الوقت ذاته إلى خطاب ثقافي يكشف عن علاقة الذات بالعالم. وإذا كان أدب الرحلة القديم قد اتسم غالبًا بالصبغة التقريرية التي تميل إلى التسجيل الموضوعي للوقائع والأمكنة، فإن أدب الرحلة المعاصر تجاوز هذا البعد الوصفي ليتشكّل في صورة سردية إبداعية، تحتل فيها الذات الساردة موقعًا مركزيًا، وتُطرح عبرها قضايا جديدة مثل الهوية، الاغتراب، والبحث عن الآخر.

من هنا تطرح هذه الدراسة إشكالية جوهرية تتمثل في: كيف تطور أدب الرحلة من مجرد سجلّ للوقائع إلى شكل سردي متكامل يمتلك مقوماته الفنية والإبداعية؟ وهي إشكالية تتفرع عنها جملة من التساؤلات، من بينها: ما الخصائص السردية التي تميز أدب الرحلة عن غيره من الأجناس؟ ما الفروقات بين الرحلة القديمة والمعاصرة من حيث المقاصد والدوافع؟ كيف أثرت العوامل الذاتية والفسرية في تشكيل النص الرحلي المعاصر؟ وما الدور الذي تؤديه الذات الساردة في إثراء النص الرحلي وتحويله إلى خطاب إبداعي؟

وتهدف هذه الدراسة إلى تفكيك العلاقة بين السرد وأدب الرحلة، من خلال إبراز دور السرد بوصفه أساسًا لهذا الجنس الأدبي لا مجرد وسيلة فيه، وتحليل مقاصد الرحالة العرب المعاصرين في ضوء دوافعهم المختلفة، إضافة إلى الكشف عن الخصوصية الفنية لأدب الرحلة المعاصر، بما يحمله من تحولات جالية وفكرية. كما ترمي إلى تأكيد الأهمية النقدية لهذا الأدب، باعتباره جنسًا حيًا متجددًا، يفتح المجال لمساءلة قضايا معاصرة تتصل بالذات والهوية والآخر.

ولتحقيق هذه الأهداف، يتوزع البحث على جملة من العناصر الأساسية؛ بدءًا من تحديد موقع السرد في أدب الرحلة القديم ورصد مكوناته الفنية، مرورًا بتحليل مقاصد الرحالة المعاصرين من خلال دراسة نماذج مختارة تمثل تباين

الدوافع الذاتية والتفسيرية والرمسية، وصولاً إلى استخلاص النتائج التي تبرز ملامح التطور في أدب الرحلة العربي وتحولاته من التوثيق إلى الإبداع.

1- السرد وأدب الرحلة:

يشمل مشهد السرد العربي القديم العديد من الأنواع والأشكال السردية، من بينها مسألة شعرية أدب الرحلة التي تمّ طرحها على الساحة النقدية الحديثة، ما تفتك اعترافاً بكونها شكلاً من أشكال الكتابة السردية التي تمتلك جمالية متميزة مخصصة في البناء واللغة والأسلوب والأشكال التعبيرية المختلفة التي تتخذها هذا من جهة، ومن جهة أخرى تنوع أساليب إنتاجية بنياتها النصية، وقد طرأ على أدب الرحلة قديماً وحديثاً تساؤلات عدّة في شكل هياكلها السردية، ودراسة خصائص بناء خطابها، بحيث لجأ السرد إلى إعمال آليات حديثة تتماشى مع متطلبات العصر، أين أصبح يرفض السائد والغالب في تكوين الأجناس الأدبية؛ ليخرج من دائرة الأشكال الكلاسيكية، لتشكيل نهج إبداعي جديد.

صفوة القول أن أدب الرحلة يعد شكلاً راقياً فنياً جامعاً لمختلف أشكال السرد التقليدية مثل الحكاية والقصة وغيرها، ويعدّ السرد أحد الصيغ الخطائية التي يُعتمد عليها بمختلف مكوناته لنقل المعنى كالحديث والتسلسل والحبكة والحوار، إذ أنّه يميّز بوصف مغامرات الرحالة وتجاربهم ولقاءاته مع ثقافات متنوعة وعادات شعوب، وتأمّلات لأمكنة وقف عليها، وبوصف هذه الديناميكيات تتجلى جمالية السرد، فـ "السارد في الرحلة إذن يصف ليسرد، ويسرد ليصف"¹، لذلك ينفرد أدب الرحلة عن باقي الأجناس الأدبية، كونه يعتمد تأطير نصه السرد في سياق الرحلة فلا تنفصل الكتابة الرحلية عن السرد مما يجعلها جانباً لا غنى عنه، ويثران بعضهما البعض، فهي "تشكل مدونة سردية يتمخض من خلالها (خطاب أدبي) يجمع عناصر شتى من عناصر السرد التي تحيلنا إلى الأسس العامة التي اعتمدها الرحالون لإبراز ذواتهم نحو المتلقي"² والواقع أن متن الرحلة يتمثل في السرد الذي ينقله الرحالة إلى المتلقي من حوادث ومواقف، فيصيغها في أسلوب حكائي سردي يعتمد فيه على الإثارة والتشويق، ويسعى لتقديمها بلغة أدبية ممتعة يمزج فيها "السرد بالوصف هذا الأخير الذي أصبح مجالاً خصباً يستوعب شهوة القص بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى شأنه في ذلك شأن التّصوُّص السردية الأخرى كالرواية والسيرة والقصة الفنية وغيرها من أشكال التعبيرية السردية وقد يفوقها سحرًا وجاذبيّةً لأنّه ينطوي على حقائق واقعية ولأنّ راويها (الرحالة) هو صاحبها ومجربها والعارف بأحداثها المحيط بتفصيلاتها لأنّه عاشها بجاع فكره وأحاسيسه"³.

الواضح أن الرحلة العربية تعرف بفعليها؛ فعل الكتابة وفعل السفر، وباعتبار الرحلة مرتبطة بالحلّ والارتحال والإقامة والانتقال من مكان لآخر وفعل الكتابة الذي يعتمد على السرد لإعادة مسار الرحلة خطائياً، هو ما يدلّ على أنّ السرد هو أساس الخطاب الرحلي، وكون النصّ السردية متعدد الأشكال البنائية له استراتيجياته في التفاعل مع خصوصية كل جنس سردي "ومثل ذلك النصّ الرحلي شكله غير مقيد بقاعدة فهو لا يخضع لقالب نموذجي إنّما تتباين معالم بناءه من نصّ لآخر"⁴، وبهذا تكشف بجلاء أنّه حتّى تكون الرحلة جنساً أدبياً قائماً بكلّ مكوناتها السردية، لا بد أن يتضح الخطاب الذي يميّزها عن غيرها، لو أتيناً إلى تقصي هذه المكونات والعناصر التي تجسده كخطاب سرديّ شامل كامل الأطراف نجدها تتمحور في (السارد- السرد- المسرود له- لغة الخطاب) وبسردية الارتحال، تفتح الآفاق أمام المتلقي

لمشاركة الرحلة في تجواله بين الأمم ومعرفة افتراضية للثقافات والتقاليد والأساطير والطقوس والديناميكيات الاجتماعية المختلفة، ورفع الإيهام والغموض عنها.

من وجهة نظر السرد، يمكننا تعريف السرد الرحلي أو سرد الرحلة على أنه شكل من أشكاله-السرد- القائمة على نقل روايات الأحداث والمشاهد والمغامرات والانطباعات واللقاءات والمحدثات والتجارب الأخرى من طرف ساردها/صاحب الرحلة، من فضائها الواقعي الحقيقي إلى خطاب سردي مكتوب، " فالرحلة - من منظور السرديات - صيغة لغوية لها سماتها الأسلوبية التي تميزها عن غيرها من الأشكال التعبيرية، وأن المضامين والقيم ما هي إلا نتيجة لهذه الصيغة وهذا الاختيار الأسلوبي؛ فهي حكاية يسردها راوٍ محدد بصيغة وأسلوب محددين، وزمن معين، وأشخاص، وأحداث، وفضاء كلي، وأمكنة متنوعة"⁵، وإذا كان السرد يركز على عناصر الزمان والمكان ومحور الشخصيات وتواتر الأحداث، واهتمامه ببنية المحكي كركيزة، فإن هذه المعايير هي التجلّيات التي تشتغل عليها أدبية الرحلة، بل هي التظاهرات التي تعكس السلوكات الثقافية وامتدادها واختلاف الرؤى للحياة الإنسانية، ومنه نؤكد أن ما يجمع بين السرد كعمل والرحلة كخطاب هو العلاقة التكاملية، وإن هذا التعلق يفتح مجالا أوسع في دراسة سردية أدب الرحلة.

يتطلب السرد الأدبي ظهور كل من صوت الراوي، مستوى التبئير، التخيل والحبكة، ومختلف مكونات السرد الأخرى الثابتة. التي تشكل مسيرة سردية، وباعتبار الأدب الرحلي نوعا أدبيا يعكس تجارب الرحالة بعناصر سردية؛ فهو يحتضن هذه المقومات، ويركز على خلق وصياغة تجربة سردية فنية جالّية، بالاعتماد على الإبداع جنبًا إلى جنب مع التسجيل الواقعي، ما يجعل النصوص الرحلية تنجح في توظيف السرد كوسيلة لخلق قضايا أدبية أوسع مثل الذات، وديناميكيات المجتمع والجوانب الثقافية، عن طريق دمج كل من التخيل والواقعية بشكل بارز؛ يبدأ السرد في الرحلة مع بدايتها إلى ذروتها، فنجد أن السارد في النص الرحلي يقسم سرده بشكل استراتيجي إلى محطات يتوقف فيها السرد ليستخلف بالوصف أو لايراد شعر أو لتقديم رؤى قبل استئناف سيرورة السرد.

ننوه إلى أن معظم النصوص الرحلية التراثية، لا يمكن إدراجها ضمن دائرة الأدب السردية، لأنها تتبع نهجًا مباشرًا يقوم على الأسلوب التقريرية، ويورد المعلومات بحيادية دون تبئير، ودون إضفاء صفات الأمكنة وخصائص الأشياء، حيث تركز غالبًا على التوثيق الواقعي والمشاركة الدقيقة للمعلومات المتعلقة بالأحداث والمواقع الجغرافية والخصائص الثقافية، ما يجعل الكتابة الرحلية تتماشى والكتابة التقريرية الجغرافية والتاريخية من حيث المحتوى، حيث يتلاشى فيها صوت السارد بعيدًا عن السرد ليم استبداله بتصوير موضوعي وتلغي التفاعل مع الأحداث والتجارب التي تمت مواجهتها، ولا يوحى إلى انطباعاته الشخصية التي تعتبر من أساسيات السرد الأدبي، إذ لا يمكننا أن نصفها بالأدب السردية أو نسقط ونطبق عليها المقومات السردية لأنها تعبير، ووصف، وتوثيق وتأريخ نادرًا ما تتخللها تلميحات سردية أدبية، فعلى الرغم من التراسات الأكاديمية والعلمية والبحوث النقدية التي تناولت هذه الرحلات ومحاولات منهم لجعلها نصوص سردية أدبية، إلا أن في ذاتها تفتقر للسرد لأنها تتفاوت في درجة سماتها الأدبية ولم تكتب إبداعاتهم وفق المقومات الفنية والقواعد الخطابية التي يقوم عليها أدب الرحلة.⁶

ومثل في هذا الغرض رحلات "ابن حوقل" والرحلة الصليبية ورحلة المقديسي، المسعودي في كتابه "مروج الذهب" وياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان وكما أن محاضرة الدكتور "عبد الله الغزالي" حول أدب الرحلة بعنوان

سرد أدب الرحلة تسلط الضوء على محاولات دمج العناصر السردية في مختلف الرحلات الكلاسيكية، ولكن لم يحقق فيها الجوهر السردى الكامل وبالتالي يبتعد تصنيفها عن الجنس الأدبي، والتي ينصب التركيز الأساسي للكاتب/ السارد في مثل هذه الحالات على تقديم معلومات دقيقة حول الأماكن والعادات والأحداث مع الحد الأدنى من التركيز على التخيل أو بناء الحكمة، مما يقلل من الجانب الإبداعي مقارنة بالأشكال التعبيرية الأخرى، قد تكون هذه الأعمال أكثر انسجامًا مع الوثائق التاريخية أو التقارير الجغرافية.

على العكس من ذلك، نجد العديد من الرحلات التراثية التي تمثلت كنصوص سردية بحتة وتبعت تقنيات السرد في صياغتها من البداية إلى النهاية، وتعتمد بشكل كلي على الأساليب الوصفية التي توقع هذه الرحلات في صعوبة تحديد أجناسيتها، فنجد تلك التي تعتمد السرد المتتابع؛ فيقترب من السيرة الذاتية كرحلات "ابن خلدون"، بينما يركز البعض على شخصية السارد (الرحال) فتقترب من أدب المذكرات واليوميات، كرحلة "ابن فضلان"، إذ "تبرز من كاتب إلى آخر خصوصية في التعبير عن رحلته التي تمنحه الحرية في توظيف ما شاء من الأشكال."⁷

2- مقاصد الرحالة العرب المعاصرين ودوافع الترحال:

إذا كانت الرحلة القديمة قائمة على دوافع ذاتية معرفية سياسية سفارية؛ فإن المعاصرة أغلب دوافعها كانت قسرية إلى حد كبير على الأفراد الذين هاجروا أو تم نفيهم بسبب الاضطرابات السياسية التي شهدتها مختلف المناطق العربية من أشكال جديدة للعدوان السلطوي أو الإمبريالية الجديدة، لذا اتسمت بمسألة التاريخ وحملت مظاهر التعبئة السياسية التي تشهدها مختلف البلدان العربية، وهذا لمناقشة الأوضاع التي تصور الهويات الفردية والجماعية، وهذا يدل على وعي المثقف في تحزّي الجغرافيات الذهنية، وبالتالي تحمل الرحلة المعاصرة وجهات نظر نقدية جديدة حول واقعنا الزاهن، وحول علاقتنا بالآخر.

تعددت أشكال التعبير في أدب الرحلة المعاصرة كما تنوّعت مقاصدها، الأمر الذي جعلنا نستجلي هذه المقاصد عن طريق الرحلات المختارة ونثج نهج أصحابها فيها؛ إذ نجد من جمع بين تباين مقاصد الرحلات المعاصرة وبين من اتخذ الرحلة نتاج فعل السفر، يكمن الاهتمام بها عموماً في الدوافع الذاتية، وتكون منطلقات الرؤى فيها قائمة على الذات الرحالة، وهذا يظهر في نسيج الرحلة أو على هامشها؛ إذ لم تعد الرحلات كمحاولات وطنية دبلوماسية رسمية أو مجسدة بدافع الدين الذي كان المحرض فيها للدوافع الموضوعية، ولم يكلف بها الرحالة من قبل مسؤول في إطار بعثته دولية كرحلة "ابن فضلان" ولا لكتابة تقارير عن الممالك والأصقاع ومعرفتها لأهداف عسكرية ولم تكن محصورة ولا محدودة حسب محدودية الرحالة.

تقوم الرحلات المعاصرة على الدوافع الذاتية القائمة بفعل الترحال الذي وحده من يقرر وجهته، وتأويل هذا الفعل إلى فعل الكتابة، إذ يتعدى فعل السفر المعاصر في كثير من النصوص مجرد كونه رغبة كتابية بفعل الترحال إلى تلبية دور الساعي الذاتي، وهي طريقة تأسيس بعد ذاتي معرفي للرحلة؛ أي تتجاوز الأخبار وتصوير تجليات الأحداث والوقائع المرتبطة بها، وقد ظهر بشكل بارز أن الرحلة المعاصرة أضحت نقلة للتأمل الذاتي في كنف السفر لتسجيل وقائع الرحلة، إذ تسعى الدوافع الذاتية إلى إعادة بثّ أبعاد دلالية خاصة تحرك إدراك المتلقي.

1-2 تجليات المقاصد في النماذج الرحلية المختارة:

لقد شكّلت الرحلة العربية المعاصرة منهاً ثرياً يجمع بين الكثير من التفاصيل بتعابير أدبية راقية؛ إذ أضحيّ الرحال المعاصر لا يعبأ بمظاهر الحياة المختلفة بقدر ما انشغل بدوافعه الذاتية كالأبعاد الروحية والالتقاء الروحيّ للعوالم الجديدة وثقافتها وغيرها، مما يشغل بال المترحلين في الوقت الراهن؛ بحيث لم يكتف استنطاق المشاهد العمرانية والحضارية وإنما تناول قضايا اتسمت بعمقها وأجاد سرد تفاصيلها، والإضافة النوعية التي تضيفها المعاصرة للرحلة هو الحضور القويّ لتجليل الذات وهو الذي برز بوضوح في متن بعض المدونات.

وتركيزاً منا على هذه المدونات وحصر البحث فيها، يهدف هذا الأخير إلى إبراز نتاج العرب الذي يتميز بوعي أدبيّ خالص، فسعى إلى تفكيك الدوافع التي أنشأت هذه الرحلات التي من شأنها أن تظهر مسار الرحلة بوصفها وثيقة معاصرة تراعي مقصديّة السفر، فهذا الأفق يساعد على تصنيف أشكالها، وبما أننا نتأمل الرحلات التي بين أيدينا فالأمر يجعلنا نتساءل عن كيفية تبرير اتجاهها الذي يسعى إلى تصنيف دوافع الرحلة المعاصرة إلى دوافع ذاتية تميزها عن غيرها من الرحلات على مر العصور.

فنجد أن كلّ رحلة يفرض رأيه عن رحلته وأسباب ارتحاله لنجد العراقية "لطيفة الدليمي" في رحلتها "مدني واهوائي جولات في مدن العالم" قد طغى عليها الهاجس الترحليّ، حيث نجدها فعلت فعل الكتابة انطلاقاً من فعل السفر، لتسعى متلفظة إلى الأخذ على عاتقها مسؤولية ترميز مقصديتها من هذا الخطاب لتسهل على القارئ تصنيف رحلتها؛ إذ أنّ المقصديّة في هذا النوع من الرحلات تكون تواصلية تتعلق بما يرغب المتلقظ بالرحلة أن يمرره لمستقبل الرحلة، من خلال اعتبار أن السارد وهو يدون الرحلة يعتكف على ما يهدف إليه في رحلته هذه، وبناءً على ذلك سنحدد مقصد الدليمي التي أشارت عليه بقولها: "أعبر القارات عبور الأيام أو مرور السحب مع رفيق أحلامي اللامرئيّ، أرى المدن نوافذ مشروعة، لا أتحرى عن مدن الحجارة والمصانع وحشود الأقتان البشرية الموهنة للشقاء، إنما أستحضرها في إحدى رؤاي عنها، لا كما يقدّمها لنا وهم الجمال أو قناع التسلسط، بغتة أجدني رحالة بين أقوام المدن، مدن تلتقي إلينا بطعوم غوايتها مما وراء البحار والبحاري بشروط لا قبل لنا بها."⁸ إن المقصديّة هنا اشتغلت من أجل استحضار المشاهدة والمعينة والتي حاولت الرحالة إنتاج صور لغوية دلالية "رحلة متعة ذهنية نفسية أحياناً ورحله افتتاح واكتساب مهارات وخبرات أحياناً أخرى"⁹.

عملت الرحالة "لطيفة الدليمي" في سياق مترابط وأثرت نصّها بعوالم معلومة لضبط متنّها الترحلي عن طريق فعل الكتابة السردية؛ بحيث تلجأ إلى التأمل في الصور والحمولات التي جعلتها كاليام فكان السفر بالنسبة لها مدعاة للتأمل والتدبر في هذه التحوّلات والتصورات باختلاف أشكالها ويكشف المقطع بجلاء عن الأسلوب الروائيّ الذي تميّز به "الدليمي" والذي يتقاطع مع البعد الترحليّ مشكلاً بذلك معماراً سردياً يمكن الساردة من تقديم نصّها الإبداعيّ عن طريق ضمير المتكلم ليعبر عن المكان الخطائية الغنية بالأنساق التي تصوّر الذات وخصوصيّاته.

ننتقل إلى رحلة "ربح خدوسي" في رحلته رأيت في الهند يوميات كاتب في بلاد العجائب التي أجمعت أحداثها على استقطاب القارئ في إظهار مقصديته في هذه الرحلة التي كانت على شقين أولها علميه وثانيها سياحيّة ومن الوهلة الأولى ودون مهادّات وضعنا "خدوسي" في طلب المقصديّة من هذه الرحلة التي تقف من خلالها على الشعور الداخليّ

الذي اعتلاه بمجرد تلقّيه دعوة المؤتمر في بلاد الهند وهو يستعرض أحداثه بتفاصيلها، يعرفنا أنّه كان الحلم المكنوز في داخله يقول: "لم تكن رحلتي رغبة في نزهة خارج الدّيار أو لمهمة معينة... بل كانت إرضاء لقوة باطنية غامضة مشبعة بشغف الاكتشاف، وكذلك لتحقيق حلم قديم نائم لإرواء فضول ظمئ عنوانه البحث عن الحقيقة.. أطلبوا الحقيقة ولو في الهند"¹⁰، ركّزنا على هذا المقطف الدّال على دافعه من الرحلة يبيّن فيه أنه بالرغم من تجربته الترحلية هذه جاءت متأخرة فإنّه جعلنا لا ننسى "خدوسي" الروائي وهذا قياسا إلى ما يشي إليه هذا الإبداع الترحليّ من جالّية فنيّة، يستفّر هذا المقطع مقصديّة إخبارية لعبت دورًا مهمًا في تنسيق مسار الرحلة وسرديتها لتجميع شتاتها وترتيبها بغاية حصر حمولاتها الضّمّنيّة من أجل ضمان مشروعية خطابه الترحليّ، فهو لم نجبرنا بعوامل ثقافية تحاكي الأحداث والواقع فقط؛ بل إنه يؤكّد أنه قام بسرد فعل واقعي، ارتبط بتجربته إلى الهند بعد دعوة للمشاركة في مؤتمر هناك من أجل ترسيخ مصداقية أحداثه ومسار رحلته عمد إلى بوح حلمه في زيارة في الهند، وكان توقيت هذه الدّعوة مناسبًا تمامًا لإحياء ذاك الحلم للارتحال إليها لاكتشاف أمكنتها المتعددة والمتنوعة.

ينتقل مقصد الرحلة من مسار رسميّ متمثل في حضور فعاليات المؤتمر إلى مسار غير رسميّ متمثل في تجوال الرحالة رفقة زوجته في مختلف الدّيار للتعرف على أحوالهم هناك وهذه الاختلافات في المقصد منحت للرحلة حيوية خاصّة تعكس قدرة "الخدوسي" في ذكر تفاصيل رحلته التي تنوّعت بواعثها وأبدت تفاعلها مع ما لا ينفى مبادئها، وبهذا التّنوع في المقصديّة أسس بعدًا تواصلًا لخطابه الترحليّ، وذلك عن طريق إشراك القارئ في إنعاش ذهنه ولدنّه حول فضائات الهند وما استأثر فكره هناك، ويؤكد من خلال قوله "الأهم في الرحلات السياحية أن تعرف حدود جغرافيتك، وثقافة المكان وأسرار الشعوب، لكن في رحلة أعماقك لا تكتشف حدود الحقائق والمجازات وخفايا الدّات."¹¹ في مضمار هذا الطّرح أيضا نجد "عبد القادر حسام" في رحلته "غاوي سفر" ينحو منحى الترحالين المعاصرين في إظهار مقصديته في التّرحال؛ إذ نجد أن في ترحاله الزّاهن يردف بعض الحقائق الواقعية كما أنه يتردّد إلى الزمن الآفل ليحكّي بعض الوقائع التي حدثت له في حياته، ينطلق في زمن المعاصر ثم يعود لزمن الماضي وتعبير أدقّ فهو يجمع بين الاسترجاع والاستباق لحكي وقائعها الترحلية، وعبر هذه ثنائيّة التي يشتغل عليها يكشف الرّؤية التي يسعى إلى كشفها والتي تتمثل في طرح رحلاته في قالب محكيّات متخذًا من فعل الكتابة وسيلة ليشكل بها مكونًا سرديًا لبناء عالمه الترحليّ، وما يريد إيصاله عن طريق مقصديته الإخبارية التواصلية، لتتراوح مقصديته بين الرسميّة والغير الرسميّة بين حضور مؤتمر التبت في ألمانيا وحضوره ضيف على راديو العرب في أمريكا وحضوره مؤتمرًا بالهند، فمع رحلاته الرسميّة التي قد تخلّلتها تأملات وانطباعات غير رسميّة، يتطرّق في ذلك إلى تصوّر رؤى ديناميّة تسعى إلى إعادة إنتاج الوقائع والأحداث الترحلية بنيويًا ودلاليًا لتشكيل وعي جديد وهو النهج الذي مشى عليه "الخدوسي" ليفتح "عبد القادر حسام" رحلته بإشارة فيها تضمّنت مقصده فيقول: "شعرت بمتعة كبيرة بالفعل أثناء السّفر، وعرفت أهمية السّفر والتّعرف على أشخاص وأماكن جديدة، قد يكون عدد التّول التي زرتها ليس كبيرًا، ولكن العبرة ليست بالكم بكل تأكيد، ولكن بحصيلة التجارب والخبرات التي اكتسبتها، وبما رأيته من تنوع ثقافي رائع أردت أن أقله للقارئ"¹² وهذا القصد الذي يعلنه السرد صراحة، فنجدّه ينطلق من داخل الرحلة وذاتيته باعتبار أنّ موقف "عبد القادر حسام" من السّفر واضح، إذ لا تتجلى خاصيّة السّفر عنده اعتباطًا، بل لا بد أن تكون فيه حكمة وعبرة، والتي بدورها تتعلق بذاتية متلفظ الرحلة كونه يسجل ما

يتلقّاه في ترحاله وسفره وفي أحيان كثيرة يمني على القارئ إلى إدراك مقصدها، ومن هذا المنطق تبدو الفكرة أقرب إلى ذاتية السارد ومنتنه، ومعنى آخر ليست رحلاته صمّاء لا روح فيها وترتكز في النّص على تسجيل وقائعه وأحداثه فقط؛ وإنّما يسعى بفعل الكتابة إلى تمرير قصديّ لطروحات رؤيوية في وجدان القارئ، وبطبيعة الحال يتحقق ذلك عن طريق الوعي باستقراء الواقع الغيريّ وما إلى ذلك محاولا ربط هذا الوعي بوعي المستقبل لفعل الرحلة لتكوين لديه رصيد غزير، فهو لا يجتزأ الأحداث ويسترجع الوقائع من الفراغ، وحسبه فإنّه يلقى بهذا إلى أذهان المتلقّين لتجسيد أدوارهم المنوطة إليهم.

في مدونة أخرى يحرص السارد في رحلة "القاهرة من أبواب متفرقة" على استدعاء تفاصيل رحلته داخل عمل سرديّ يميلنا إلى نسيج إبداعيّ مرهون بأحداث ووقائع وحوادثها وتصوّرات نسقيّة عن القاهرة، اكتسب هذا النّص الزّاهن مقصديّة تمثّلت في ترحيح وظيفة السرد الترحليّ التقليديّ؛ إذ أن السّفر لم يعد مغامرة فقط؛ وإنّما مغامرة جريئة تعتمد الواقع والحادث، ولكن أصبحت الّذات فيه فاعلة لا ناقلة للواقع فحسب؛ وبما أنّ الكتابة بهذا المنظور تروم إلى تفجير الّذات بغاية تدارك تهميشها في النّص الكلاسيكيّ، وبذلك يصبح السرد الترحليّ ردّ فعل من الذات الساردة اتجاه الرّكود الّذي شهدته عبر مراحلها.

هذه الرحلة الّتي اهتم فيها الترحال في نقل تفاصيلها لحظة بلحظة جعلها ملفوظًا سرديًا متناسقًا دالًا على خصوصيات الكتابة الترحلية، كما أن مقصديّته في هذا النّص تكمن في الرّسميّة وغير الرّسميّة لنؤكد مرة أخرى أنّ النّص المعاصر يلقى بالتصنيفات التمثليّة بعيدًا ليكشف للدرس النقدي أنّها تصنف تبعًا للّذات السردية ونفسيّتها وإدراكها بتعدد بواعثها، الّتي أضحت تنصهر الرّسميّة في اللارّسميّة داخل النّص الواحد، وتبين ذلك من خلال المدوّنات الّتي اعتمدناها والّتي أظهرت أن بإمكان الترحال أن يكون له أكثر من مقصد واحد لتدوين وقائع رحلته، وأن ما يتحكم في ذلك هي مجموعة من المؤثرات الّتي لا يمكن للترحال أن يتجرّد منها، كونها تساهم في تكييف لحظات الرحلة وسياقاتها، ويكون بذلك فعل السرد جسرًا يمتد بين القيام بفعل الارتحال والسفر وبين إعادة إنتاجه.

عبر هذا التعلّق تتشكل لنا المقصديّة التواصليّة للخطاب الترحليّ لدى "الوراري" "مما يوضح أن تنوّع الرحلة يضفي بضرورة إلى تنوّع في الترحلات"¹³ هذه الرحلة الّتي قام بها "الوراري" رحلة لحضور المؤتمر قصيدة النثر في القاهرة لم يركز كثيرًا في لحظاته على وقائع المؤتمر أكثر مما ركز على المواقع والفضاءات الّتي زارها، منح وقته لاكتشاف القاهرة وأورد جزءًا معبرًا في النّص يقول في ذلك: "هذه انطباعات عن القاهرة وروح أبنائها العظيمة، جمعتها من أبواب متفرقة: من ممشي، ومفترق طرق، ورؤيا، وصدى ذكريات، ولعة منارة، وانهيّارات ظل، انطباعات تتوالد من تلقاء المكان الّذي لا تسافر إليه وحسب، بل فيه"¹⁴، يشير السارد في هذا المقطع إلى طبيعة هذه الرحلة كونها انطباعات متبعا في ذلك طريقة جمع ما شاهده ولقاه وما عاينه وما تولّد في ذاته عن الأمكنة؛ وبالتالي عندما تتأمّل هذا الحفل لنفي أن الفعل الواقعيّ كان متجسّدًا بشكل ملحوظ في الفعل اللفظيّ، وهو أجلّ مثال على هذا التجسيد سواء كان مقصودًا أو غير مقصود؛ حيث تحولت رغبته في السّفر إلى هاجس لغويّ غذى روحه وذاتيته، بل امتدت هذه الرّغبة حتى إلى القارئ لتعكس له مجريات الأحداث كونه حاول تعرية الأمكنة في مضامين رحلته.

في وتيرة مغايرة تمامًا نجد "باسم فرات" في كتاباته الترحلية يعمد الرحلة الاستكشافية بمقصديّة مختلفة غير رسميّة بناتًا، رحلاته فرضتها الظروف بدايتها كانت مع الحرب في العراق التي جعلته يشعر بالاعتزاب وفقدان الذات يقول "أنا غادرت البلاد بدمعة لم تجف يوما"¹⁵ وإن المقصديّة التي كانت في بداية رحلته هي اللجوء في هذه الدلالة الكاملة والكافية، على أن السرد هنا يفسح عن مكثونه الذي يؤرقه ويشير اعتزابه الدائم ويشير بذلك للحائل الذي يقف بينه وبين بلده الأم، في تلميح منه أنه وبالرغم من المغادرة التعسفيّة لبلاد وقع فيها رهن اختلاف الأيديولوجيّة ورهن المكان واختلاف البيئة إلى أن الإحساس بالفقر لا زال يجابه؛ بحيث اصطدم بأزمة التهجير التي جعلته يبدأ في تسجيل تجاربه وجعلت ارتحاله أشبه بارتحال إجباريّ؛ إذ أن هناك فرق بين من اختار قصد الرحلة بإرادته ومن اختارها قسرًا لحماية الذات، ليجد نفسه بعد ذلك ينتقل من بلد لآخر بفعل الظروف الحياتيّة الخاصّة به.

ومنه نصل إلى أمقصديّة الترحال تتغيّر بتغيّر واقع الرحالة الذي يطرح أزمة الانتماء المتكررة وأزمة الهوية استطاع أن يخرج من كنف المعاناة بوصفه لاجئًا ليتابع حياته كشخص مستقل، يمنح "باسم فرات" مقصديّة جديدة للرحلة بفعل ارتحاله المتكرر واللامستقر، والذاكرة هي التي دائماً ما تواجه سردية الرحلة والتي أوقعت "فرات" في جدليّة الذات وفضاء الحرية، لنجده قد زواج بين وعيه للمكان المعادي الذي شكّله الاعتزاب، والأليف والذي كشف عن مشاعر عميقة، وهو يستحضر العراق لا شعوريًا ويجسده لنا لفظيًا لغويًا رغم ذاته الضائعة، يسعى إلى توسيع مجال رحلاته ودائرة اهتماماته، وإذا أمعنا النظر في رحلاته نجده يشرع إلى التلميح والتصريح، ويختار المكوث في بنية النص المعلنة ليجعل من رحلته رد فعل وتبرير لما يحصل في الغرب، وسعى إلى تقديم معلومات دقيقة ويؤكد هذا قوله: "الانتقال من مكان إلى آخر ليس بالأمر الهين، لكن شخصًا مثلي أصبح اللااستقرار استقراره، وكل الأمكنة منافية الأثرة، شخصًا حين أيقن أن زمن المنفى طويل، وأن حياته منفي لا قرار له، تصالح مع الأمكنة، وتعلّم لغة المنفى الأبدي التي تعني حين الانتقال من مكان إلى مكان جديد، يبدأ العمل يجد لزراعة ذكريات، وتهبئة حاضر ليكون ماضيًا مليئًا وثرًا بالاكتشاف والدهشة واقتفاء أثر الجمال أينما كان."¹⁶ وإذا انطلقنا من هذا المقطع وما يعنيه بدلالته الحرفية نجد أن "فرات" ألبس من خلال ترحاله نوعًا من المحولات المغايرة لما هو مألوف في بلاده؛ إذ يحيل سياقها اللغوي إلى منظومة شكّلها التعايش مع مختلف الأمكنة التي فرضتها عليه الظروف واللااستقرار فيها، ويظهر ذلك من خلال تعلّم لغة المنفى لكسر القيود الصارمة ما سمح له بالتعود على سلسلة التّصورات التي يلاقيها في هناك، وهذا ما يفسر سرّ تعايشه بما يصطدم به من مرجعيّات ثقافيّة تاريخيّة للبلدان المرتحل إليها.

بعد أن اشتغلنا قليلًا في عرض وتحليل ضروب من تصنيفات لبعض النصوص الترحليّة المعاصرة، نشير إلى أنها تثبت بلا شك اختلاف وتنوع المتون في ضوء اختلاف اهتمامات الرحالة وأغراضهم ورؤاهم اتجاه الرحلة وطبيعتها الصريحة والخفية، وبعرضنا لها حاولنا التمييز بين الارتحال المعاصر ومقصديّته ببواعثه المختلفة وطبيعة الكتابة فيه التي ترتبط بشكل مباشر مع اتجاهات أصحابها، لم يكن توجهنا هنا قصد الاستقصاء ومتابعة تاريخيّة الرحلات المعاصرة، وإنما كان الإشارة إلى أنّ الرحلات التثريّة المعاصرة جعلها الرحالون متأثرة بأغراضهم واهتماماتهم لنجد أغلبها يتداخل فيها صنفين في حالات كثيرة الرسميّة وغير الرسميّة؛ إذ امتزجت الرحلات السّفاريّة والاستكشافيّة لتكون الرحلة المعاصرة جامعة بين هذين الأمرين كما شهدنا عند "الوراري" و"خدوسي" و"عبد القادر حسام".

أما "باسم فرات" فقد التزم في رحلته في كتاب "أمكنة تلوح للغريب" بمدونة واضحة محددة المقصدية والغرض، فقد قدم الدافع غير المختار لمغادرة وطنه ليكون التوجه الرئيسي للرحلة كما استشفنا من نصوصه التي أظهر المقصدية من ارتحاله الذي فرضته الظروف، ويمكن أن نصلح عليها بالرحلة القسرية أو الإجبارية وهو الأمر سيان بالنسبة للرحلة "لطيفة الدلي" التي بدأت في ترحالها بشكل إجباري باحث عن الاستقرار لا شعورياً، فهي تعلن في أكثر من مقتطف داخل رحلتها على أنها المرأة الغريبة التي فرت من الموت إلى المهجر لتعيش العدم لوجد وعيًا جديدًا في مقصد الترحال ليتمازج الإجباري ومحاوله التقرب من الثقافة الأخرى لتحقيق الذاتية، وهو ما سمح لنا بإظهار الفروقات بين الكتابة عن الاغتراب وكتابة سردية رحلية.

إن اهتمام الباحثين بهذه الزاوية جدير بالتنويه، فهو من شأنه أن يؤكد على ميلاد رحلات معاصرة تطرح إشكالات وانشغالات جديدة عن المشترك في الخصائص والتمازج بين الاختلاف وتبين كذلك قيام الرحلة المعاصرة على منطق التأليف الرحلي التراثي المعهود، فنظر الرحالون المعاصرون إلى الأمكنة ووصفها وإيراد خصائصها الطبيعية ومدنها وشؤونها ولغاتها ومذاهبها وغيرها مضيفين في ذلك مسحة العصر، فلم يغفلوا عن بنية النص وخصائص الخطاب الرحلي الشكلية والانتظام الخطابي فيه كونها وثيقة الصلة بمقصدية الرحال وقصده في التدوين والكتابة.

إننا لا نزع تقديم مقصدية جامعة مانعة لا تترك أي استثناء يخرج عنه، فالتص الرحلي المعاصر نص سردي واسع في الأدب فهو يقوم على التغيير الشكلي والتحول المستمر ليستقر بناء وطرائق سرده وأسلوب كتابته، وهي الثوابت التي تسمح لنا في تبيان انتقاله من شكل لآخر وكذا نتقني تغيراته فن: "الأجناس تكون في كل فترة نظامًا، ولا يمكن أن نعرف إلا من خلال العلاقات التي تجمعها".¹⁷

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة، يمكن القول إن العلاقة بين السرد وأدب الرحلة في الأدب العربي ليست مجرد علاقة عابرة، بل هي علاقة تكافلية عميقة، حيث يشكل السرد جوهر الخطاب الرحلي، ويمنحه أبعاده الفنية والجمالية. لقد كشفت دراسة النصوص الرحلية القديمة والمعاصرة عن تطور هذا الجنس الأدبي، من كونه وثيقة تاريخية وجغرافية إلى كونه نصًا إبداعيًا يعكس تجارب الذات وتأملاتها.

أهم النتائج:

1. السرد أساس الخطاب الرحلي: أدب الرحلة لا يمكن أن يفصل عن السرد. فالسارد في الرحلة "يصف ليسرد، ويسرد ليصف"، مما يجعله جنسًا أدبيًا فريدًا يعتمد على الوصف والحكي لإعادة بناء تجربة السفر.
2. تطور الرحلة من التوثيق إلى الإبداع: الرحلات القديمة مثل رحلة ابن حوقل كانت تميل إلى الطابع التقريري والتوثيقي، وتفتقر إلى المقومات السردية الكاملة من حيث التركيز على الذات، بينما الرحلات التي اعتمدت على السرد مثل رحلة ابن فضلان اقترنت من الأجناس الأدبية الأخرى كالسيرة والمذكرات.
3. تنوع المقاصد المعاصرة: على عكس الرحلة القديمة التي كانت دوافعها غالبًا دينية أو سياسية، أصبحت الرحلة المعاصرة مدفوعة بدوافع ذاتية وقسرية. هذه المقاصد المتنوعة هي التي تمنح النصوص الرحلية المعاصرة خصوصيتها.

4. حضور الذات بقوة: أظهرت الدراسة أن أدب الرحلة المعاصر يتميز بالحضور القوي للذات الساردة. فالرحلة المعاصر لا يكتفي بنقل الواقع، بل يعكس انطباعاته وتأملاته الشخصية، كما رأينا في أعمال لطيفة الدليمي وريح خدوسي وعبد القادر حسام.
5. تداخل الأجناس الأدبية: كشفت النصوص المعاصرة عن تداخل واضح في الأجناس، حيث تمتزج الرحلة مع السيرة الذاتية والمذكرات واليوميات والرواية، مما يؤكد أن هذا الجنس الأدبي ليس مقيدًا بقالب نمطي، بل هو "نص سردي واسع"

هوامش:

- ¹عبد الرحيم مودن، الرحلة في الأدب المغربي (النص، النوع، السياق)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص 112.
- ²عيسى بختي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، دار هومة، الجزائر، 2014، ط1، ص59.
- ³فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 13.
- ⁴عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي، أبوظبي، ط1، 2006، ص 208.
- ⁵عبد العليم محمد إسماعيل علي، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، عالم زين، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة 08، 2008م، ص 08.
- ⁶ينظر: عبد العليم محمد إسماعيل علي، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ص 12.
- ⁷عيسى بختي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، ص 142.
- ⁸لطيفة الدليمي، مدني وأهوائي (جولات في مدن العالم)، ارتباد الأفاق، دار السويدي، أبوظبي، ط1، 2017، ص 24.
- ⁹صلاح الدين علي الشامي الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسات الميدانية منشأة المعارف الإسكندرية 1999، ص 118.
- ¹⁰رايح خدوسي، رأيت في الهند (يوميات كاتب في بلاد العجائب)، منشورات الحضارة، ط1، الجزائر، 2022، ص 03.
- ¹¹رايح خدوسي، رأيت في الهند، 04.
- ¹²عبد القادر حسام، غاوي سفر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2019، ص 08.
- ¹³شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي تجنيس وآليات الكتاب خطاب المتخيل، القاهرة، دار رؤية للنشر، 2006، ص 136.
- ¹⁴الوراري عبد اللطيف، القاهرة من أبواب متفرقة، المملكة المغربية، دار التوجيهي، ط1، 2019، ص 05.
- ¹⁵باسم فرات، أمكنة تلوح للغريب، دار خطوط، عمان، ط1، 2021، ص 47.
- ¹⁶المصدر نفسه، ص 212.
- ¹⁷Ozward Ducrot et Tezveton Todorov, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, paris, éd, seuil, 1972, p 195.

قائمة المراجع: الكتب:

- 1- Oswald Ducrot et Tezveton Todorov, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, paris, éd, seuil, 1972, p 195.
 - 2- باسم فرات، أمكنة تلوح للغريب، دار خطوط، عمان، ط1، 2021.
 - 3- راجح خدوسي، رأيت في الهند (يوميات كاتب في بلاد العجائب)، منشورات الحضارة، ط1، الجزائر، 2022.
 - 4- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي تجنيس وآليات الكتاب خطاب المتخيل، القاهرة، دار رؤية للنشر 2006.
 - 5- صلاح الدين علي الشامي الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسات الميدانية منشأة المعارف الإسكندرية 1999.
 - 6- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي، أبوظبي، ط1، 2006.
 - 7- عبد الرحيم مودن، الرحلة في الأدب المغربي (النص، النوع، السياق)، إفريقي الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
 - 8- عبد القادر حسام، غاوي سفر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 2019.
 - 9- عيسى بختي، أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، دار هومة، الجزائر، 2014، ط1.
 - 10- لطيفة الدليمي، مدني وأهوائي (جولات في مدن العالم)، ارتباد الأفاق، دار السويدي، أبوظبي، ط1، 2017.
 - 11- الوراري عبد اللطيف، القاهرة من أبواب متفرقة، المملكة المغربية، دار التوحيدي، ط1، 2019.
- ### المجلات:
- 1- عبد العليم محمد إسماعيل علي، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، عالم زين، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة 08، 2008م.